جدلية القديم والجديد في الأدب الأندلسي
"شعر الحنين نموذجا"

أ. زينب بوصبيعة
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة.

لقد عاشت الأندلس الإسلامية في صميم الحياة الأدبية، متجاوبة مع تراثها العربي من جهة، ومتفاعلة مع حاضرها الجديد من جهة أخرى، وبلغ الأدب بفضل العرب شأوا بعيدا جعلها تستقل بمزايا خاصة وطرائق جديدة عن مصادرها الأولى بالمشرق، مضيفة إلى الأدب العربي ذخائر أخرى طريفة، وبخاصة في الفن الشعري الذي تعددت جوانبه، واتسعت آفاقه، وتميزت شخصيته، صانعة لنفسها مركبا جديدا، يجمع بين استخدام الماضي وتراثه استخداما فنيا واعيا، وبين التجاوب اليقظ مع الحاضر الحافل بشتى مظاهر التقدم والعمران[1] التي عايشوها بوجدانهم ومشاعرهم، مستجيبين لنداء البيئة الأندلسية، التي فتحت ذراعيها لشعرائها، وأغرقهم بجمالها الأخاذ، فاتخذوا فنهم وسيلة للتعبير عن أذواقهم والطبيعة من حولهم تمدهم بألوان زاهية من الحسن والجمال، فتطورت الفنون الشعرية، والأشكال الفنية عندهم، وتوفر لهم عبر العصور قدر من الإشراق والأصالة والتميز:" وظل مبدع الأندلسيين يبدع ويخترع، ومقلدهم يتلقى ويحاكي، ولم ينقطع هذان التياران إلى أن قضى الله على تلك البلاد بالمحنة وتغير وجه الأرض فيها."[2]

ولعل أهم ما يحمد للأندلسيين هو التفاتهم إلى التراث العربي وتمسكهم به وإقبالهم له، فقد أقبلوا على الشعر القديم (الجاهلي والإسلامي) إقبالا شديدا فعرفوا معظم الدواوين

وقرؤوها، ووضع بعضهم لها شروحا وتعليقات، كما عرفوا أخبار العرب، وأيامهم وبلدانهم، ثم مالوا إلى شعر المحدثين، كأبي نواس وصريع الغواني، والبحتري، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء المعري وغيرهم.[3] وقد فعلوا ذلك ليس من باب التقليد، وإنما لإحساسهم بالانتماء إلى الأمة العربية، كما أحسوا بالانتماء الشديد للبيئة الجديدة وارتبطوا بها وجدانيا، وتعلقوا بتلك الأرض تعلقا شديدا، وأصبحوا ينظرون إليها على أنها كنز من كنوز الآباء والأجداد، يشتمون فيه رائحة الكفاح وعبير العقيدة، ويبصرون على صفحته سطورا مضيئة لتراثهم، ويرون في كل قصر من قصورها أو مسجد من مساجدها، أو نهر من أنهارها تجسيدا حيا للماضي الموصول بالحاضر والمستقبل، وهذا الحب والتعلق بالأرض- المدينة- سلما وحربا ظاهرة فريدة ورائدة في العصور الوسطى، ولعل ما دفع الأندلسي إلى ذلك التعلق الشديد بالمدينة هو طبيعة الأندلس الجذابة، إلى جانب سخائها ورخائها.

أولا: الحنين إلى المدينة.

ومن ثم كان الحنين إلى المدينة (الأرض) مظهرا من مظاهر تعلق الأندلسي بوطنه، حيث كانت هذه الأرض هي سكنه الذي تأوي إليه روحه، ويهيم به وجدانه؛ لأنه مسقط رأسه، ومدرج نشأته، ومرتع لهوه وملتقى أحبائه وخلانه، وبخاصة عند الشعراء الذين يعيشون طفولة مستمرة في أعماقهم غنية بالحس والخيال والحلم، فكل من البيت، والحي، والمدينة هو بمثابة رحم الأم -الأرض- حيث تتوالد تجربة العمر كله، وتتخذ صورا بكرا أبدية بالنسبة إليهم، حتى بعد انقطاعهم عن ذلك المكان واغترابهم في أمكنة بعيدة، وهكذا يرتبط ذكر "الأم" بالمكان الأول الذي يبقى في ذات الشاعر موردا مستمرا لطاقة خيالية متجددة لذكريات الطفولة وأحلام المدينة، وهو بذلك رمز يتوالد ويتكاثف ليعبر عن ترابطات دلالية هامة في تجربة كل شاعر، وهنا تبرز قضية العلاقة بين القديم والجديد، وهي الجدلية التي يطرحها كل عمل فني يستم إبداعه، وتبرز هذه القضية في الفترات التي تشهد انطلاق اتجاهات فنية تبدو مغايرة لما

هو سائد. وقد أثار القديم والحديث في الشعر معارك حامية[4]، كما أن الشعراء العرب القدامى سعوا إلى مغادرة "المتردم" وما كانت صرخة عنترة بن شداد:

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم[5].

إلا دعوة صريحة لمجاوزة ما كان حاضرا إلى رسم آفاق جديدة ولقد استطاع الشعر الجاهلي المساهمة في المسيرة الإنسانية. فتحدث عن الحياة والموت والكون والإنسان. وتوصل إلى حقائق عظيمة. كما كانت هناك محاولات منذ امرئ القيس للخروج عن القصيدة التقليدية إلى ما أسموه "المسمط" ومجيء الإسلام عرف الشعر العربي تطورا في المضمون والأسلوب، وهكذا تظل الجدة والحداثة موجودة ومتداخلة في كل عصر، لأن كل قديم هو محدث في زمانه قياسا إلى ما قبله.

ولهذا نقول: إن الحضارة الأندلسية في بدايتها كانت مشرقية لانتماء أصحابها إلى المشرق، وبعد ظهور الجيل الجديد الذي تعلم وتثقف بثقافة عربية أصيلة، بدأ في محاكاة مناطق التأثير، ثم بدأت الاستقلالية تظهر عندما استوى عود الثقافة الأندلسية وكثرت ينابيعها. ورغم ذلك ظلت ظاهرة التشبث بالقديم في الأدب الأندلسي قائمة، يمثلها الانتماء المشرقي، الذي يتجلى من خلال تلك الصفات التي عرف بها العربي وهي: الاعتزاز بأصله وعروبته ووطنه. فإذا ما رحل إلى بيئة جديدة عمل على تعريبها من خلال نشر دينه ولغته، وأدبه وحضارته، محاولا نقل عاداته وتقاليده إلى الوطن الجديد ليجعل منه امتدادا لبيئته السابقة كي لا يشعر بالانفصال عنها.

وهكذا استطاع العرب أن يؤثروا في أهل الأندلس ليس بكثرة عددهم، وإنما بما حملوه معهم من سماحة دين، وأخلاق وحضارة وأدب، فتمكنوا من بناء حضارة عربية إسلامية مشرقية على أرض الأندلس.

ولقد كانت اللغة والدين من الروابط التي تشد الأندلس إلى الشرق المسلم، وإلى جانب ذلك هناك روابط أخرى تتمثل في صلات القربى والدم، والتي تمثلت جلية في ظاهرة الحنين إلى الوطن والأهل في المشرق، وقد رافقت الداخلين إليها من المشرق منذ وطئت

أقدامهم الأندلس.[6] فهذا عبد الرحمن الداخل، الأمير الذي أقام دولة بني أمية في الأندلس على أسس ودعائم قوية، ودانت له البلاد بمن فيها، ورغم ذلك لم ينس بلاده، وظل يحن إليها، فأقام قصرا في الشمال الغربي من قرطبة وأطلق عليه اسم الرصافة مثل رصافة جده هشام في المشرق، وأحاط القصر بحديقة غناء غرس فيها أنواعا مختلفة من الأشجار جيء بها من المشرق، وكان من بين تلك الأشجار نخلة، ولما كبرت ورآها وحيدة في أرض غريبة عنها، هيجت حنينه إلى الشرق فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمتنأى مثلي[7].

ولم تكن الشكوى من الغربة والنوى والإقصاء عن الأهل والأبناء هو كل ما يعانيه الشاعر، بل قدم لنا صورة أخرى للتمزق حين يكون الجسم في بلد والروح في بلد، وكلاهما غريب يسعى إلى اللقاء، فقال:

أيها الفارس الميمم أرضي أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي.[8]

ويتبوأ الحنين إلى الوطن والأهل مكانة رفيعة بين المشاعر الإنسانية، والعرب أمة من الأمم العريقة التي لم تفقد هذا الشعور في أي عصر من العصور، وقد وصل إلينا ذلك فيما خلفوه من أشعار دالة على أثره في نفوسهم، وما بلغنا من مظاهر الوقوف على الأطلال والبكاء على الديار التي حفل بها الشعر الجاهلي، إلا سمة من سمات هذا الشعور الذي يؤكد إحساسهم الفياض بمرابعهم وديارهم.

وبدأ هذا اللون من الشعر يرسم خطاه ويحدد مساره مع التجارب التي خاضها العرب أثناء الغزوات والفتوحات، حيث عاش الشعراء تجارب الغربة بعيدين عن الوطن والأهل، فجرى شعر الحنين على ألسنتهم مصورين فيه شوقهم وحنينهم إلى الأهل

والوطن. وكانت الأندلس تجربة فريدة في هذا المجال، إذ لم يكن موضوع الحنين في الشعر عالة على غيره من الموضوعات أو مدخلا إليها فحسب[9]، وإنما خصصت له القصائد الطوال والمقطعات، وكثر هذا اللون من الشعر لدواع مختلفة منها:

1 - البعد عن الوطن لأسباب اختيارية، كالهجرة لطلب العلم أو الرزق.

2- البعد الإجباري في حالة تعرض الوطن للخطر من قبل الأعداء.

وكلتا التجربتين أثارت وجدان الشعراء على مر العصور، وجدير بنا أن نفرق بين ما قيل في الحنين إلى مدينة أو بلدة فارقها الشاعر مهاجرا أو مسافرا إلى أخرى غيرها، داخل وطنه الكبير، وبين ما قيل من التلهف والتشوق إلى الوطن كله في الظروف القاهرة التي تضطر الشاعر إلى الهجرة منه والبعاد عنه، فالإنسان في الحالة الأولى قد لا يحس بالغربة المطبقة، والعذاب المرير مثلما يجسدها في الحالة الثانية حينما يكون مهاجرا إلى وطن آخر بعيد تفصل بينه وبين وطنه مسافات شاسعة أو بحار.

ولو أردنا الحديث عن شعر الحنين في الأندلس بصورة عامة لطال بنا الكلام، وامتد، ذلك لأن الأندلس لها في قلوب أهلها منزلة لم يحظ بها وطن آخر في نفوس أهله، وتجربة الاغتراب كانت دائمة ومستمرة على مر السنين، وسنقف عند بعض النماذج من شعر الحنين عند الأندلسيين.

لقد أشرنا - سابقا- إلى أن غربة الفتوحات والغزوات كانت عاملا مشتركا بين المشارقة والأندلسيين في تفجير شعر الحنين، ويمكن أن نلمس ذلك لدى أمراء بني أمية أنفسهم، أولئك الذين بعد بهم العهد عن أرض أجدادهم بالشام، وأصبح ولاؤهم لمدن الأندلس، مسقط رؤوسهم، ومدرج نشأتهم وعيشهم، فهذا الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم يقول في منصرفه من بعض غزواته، معبرا عن شوقه إلى قرطبة.

أقرطبة هل لي إليك وفادة تقرّ بعيني أو تمهد من جنبي

سقى القصر غنيت بالرصافة مثله وجادت عزاليه[10] كجودي في الجدب[11]

وإذا كانت غربة الشاعر عن بلده أو مدينته غربة مؤقتة، تتم داخل وطنه الكبير باختياره فإن أمل العودة يظل يراوده، ولعلنا بالوقوف على شعر أبي بكر محمد بن القاسم بن أشكهباط[12]، الذي اجتاز في غربته المغرب إلى بلاد الشام، ثم عاد ثانية إلى الأندلس ليحدث مواطنيه عن ألوان من المعاناة التي قاساها في ديار الغربة، نستطيع أن نفهم شعور الحنين وعوامله، ومما قاله:

أين أقصى الغرب من أرض حلب أمل في الغرب موصول التعب
حنّ من شوق إلى أوطانه من جفاه صبره لمّا اغترب
جال في الأرض لجاجا حائرا بين شوق وعناء ونصب
يا أحباتي اسمعوا بعض الذي يتلقاه الطريد المغترب
وليكن زجرا لكم عن غربة يرجع الرأس ليدها كالذنب[13]

ولعلّ المعاني التي أوردها أبو القاسم، تجعلنا ندرك الدوافع التي دفعت ابن خفاجة لنصراخ بلوعة ولهفة، معلنا أن أندلسه هي الجنة؛ فمن يتخلى عنها بإرادته، فيقول:

إنما الجنّة بالأندلس مجتلى حسن وريّا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجى ظلمتها من لعس
فإذا ما هبت الريح صبا صحت: واشوقي إلى الأندلس[14]

وفي قصيدة أخرى، نراه يتشوق إلى معاهده بجزيرة شقر، ويندب ماضي زمانه، إذ قال:

آه من غربة ترقوق بثا آه من رحلة تطول نواها
آه من فرقة لغير تلاق آه من دار لا يجيب صداها[15]

ويقف الشاعر مرة أخرى أمام معالم بلدته الباسمة، ويتخذ منها مجلسا للمتعة بمباهجها، ويندمج كعادته فيها فيصبح غصنا بين الغصون، ينتشي بالنسيم العليل؛ ثم يصحو من حلمه ليصطدم بالواقع المر على نفسه، إنّه غريب عن دياره، بعيد عن معاهد أنسه، حزين يتألم من الغربة، ومن رحلته التي قد تطول مدتها، وقد خيم عليه الضيق، ومس

شغاف قلبه الألم، فجاء حنينه متدفق العاطفة، جياش الأحاسيس، إذ يقول معبرا عن حال نفسه:

وحنّ إلى شقر فحف على السرى يخوض خبيجا أو يجوب كثيبا
ونهرا كما أبيض المقبل سلسلا وجزعا كما اخضر العذار خصيبا
وربّ نسيم مرّ يخطر عاطرا رقيق الحواشي لا يحسّ دبيبا
وجدت به من ذلك الماء بلّة ومن نور هاتيك الأباطح طيبا
فما كان إلاّ أن هتفت حمامة وساعدت شوقي فاهتززت قضيبا
وكان على عهد السلوّ تغنيا يهيج أطرابي فعاد نحيبا
دعا بغروب الدمع والدار غربة فلم أر إلاّ داعيا ومجيبا[16]

ويقول في الحنين إلى الأندلس:

أجبت وقد نادى الغرام فأسمعا عشية غنّاني الحمام فرجعا
فقلت ولي دمع ترقرق فاهمي يسيل وصبر قد وهي فتضعضعا
ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبة فاسكن أنفاسا وأهدأ مضجعا[17]

والشاعر في هذه الأبيات يحن إلى وطنه كنه. ويلتاع لفراقه التياعا مؤرقا، فلا يغمض له جفن ولا يستقر له مضجع.

ومرة أخرى يتشوق إلى وطنه الكبير الأندلس، ويبين أنه يستمد منه الشعور بالقداسة، ومن ربوعه محبة، ومن معاهده جمالا وفتنة، ويوازن بين واقعه وماضيه، لينتهي إلى قضية مسلمة هي أن منشأ هيامه، وملعب غزلانه لا يعد له مكان آخر. كما يقول في قصيدة أخرى يتشوق فيها ويحن إلى الأندلس:

فيا لشجا صدر من الصبّر فارغ ويا لقذى طرف من الدمع ملآن
ونفس إلى جوّ الكنيسة صبّة وقلب إلى أفق الجزيرة حنّان
تعوضت من واها بآه ومن هوى بهون ومن إخوان صدق بخوّان
فيا ليت شعري هل لدهري عطفة فتجمع أو طاري عليّ أوطاني

ميادين أوطاري ومعهد لذتي ومنشأ هيامي وملعب غزلاني[18]

وقد بين الشاعر أن الشيء داخل الوطن والشيء خارج الوطن وإن شابهه كالفرق بين (هوى، وهوان، وإخوان وخوان) وإن كان المبنى يتحد، ولكن ما بين الكلمتين فرق في المعنى والمضمون، الذي بين: الإعجاب والتوجع، والوفاء والنكران، والحب والهوان، وهذا استدلال شعري رائع، يدل على أصالة الشاعر الأندلسي الفنية والموضوعية، حيث أعانه الحس اللغوي على اختيار الكلمات الشعرية الموحية، والمعبرة عن الإحساس المرهف إزاء الوطن.

وإن ألهب الشوق والحنين ابن خفاجة، فجسد إحساسه بالوطن من خلال الطبيعة الفاتنة، فإن ابن زيدون كان من الشعراء الذين عاصروا الفتنة وصراع الطوائف، بل كان ممن يصنعون السياسة، ويتعرضون للفتن والمؤامرات، وقصته مع ابن عبدوس والكارهين له والحاقدين عليه في بلاط أبي الحزم بن جهور بقرطبة معروفة، وتآمر عليه حساده واتهموه بالتآمر لقلب نظام الحكم، فسجن نحو سنتين، ولم ينقذه من سجنه سوى فراره منه، فراح يتنقل بين مدن الأندلس، مما عمق لديه الشعور بالغربة، وأضرم لهيب الشوق والحنين إلى حبيبته قرطبة، فراح يصف حنينه لمشاهدها وذكرياته الحبيبة إلى نفسه في مرابعها، فذكر قصر الفارسي، ومجلس ناصح، والعقيق، والزهراء، ثم وازن بين ما كان فيه من نعم في أحضان قرطبة، وأماكنها السابقة الذكر، وما يقاسيه من تشرد وضياع بعيدا عنها، فيقول:

خليل لا فطر يسر ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

لئن شاقني العقاب فلم أزل أخصّ بمحوض الهوى ذلك السفحا

ويهتاج قصر الفارسي صبابة لقلبي لا تألوا زناد الأسى قدحا

وليس ذميما عهد مجلس ناصح فأقبل في فرط الولوع به نصحا

وأيام وصل بالعقيق اقتضيته فإلاّ يكن ميعاده العيد فالفصحا

معاهد لذات وأوطان صبوة أجلت المعلّى في الأماني بها قدحا

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضى ثنائيها مدامعه نزحـــــا[19]

وتبدو صورة حنينه الممزوج بالغزل واضحة في شعره الذي نظمه في طرطوشة وهـو بعيد عن قرطبة، حيث يقول:

غريب بأقصى الشرق يشكر للصّبا
تحمّلها منه السلام إلى الغـــرب
وما ضـــرّ أنفاس الصّبا في احتمالها
سلام هوى ، يهديه جسم إلى قلب؟[20]

وقد تركت نزعته المشبوبة نحو مدينة قرطبة بصمات واضحة على فنه الشعري، وقـد ملكت عليه نشوة ذلك الحب جميع حواسه ووفرت لشعره هالة مضيئة من الإيحاءات، وبعثت في نفسه ومضات من الصور والذكريات، فراح يكثر من ذكر أسماء الأماكن والمتنزهات، والضواحي بهيام وحب لأنها ترتبط بأسعد أيام عمره الذي انقضى، كقوله في الموشح الذي راح يتذكر فيه قرطبة ومجالسها.

سقى جنبات القصر صوب الغمائم
وغنّى على الأغصان ورق الحمائم
بقرطبة الغراء، دار الأكـــــارم
بلاد بها شق الشباب تمائمـــــي

* * *

ويـــوم نجوفي الرصافة مبهـــج
مررنا بروض الأقحوان المدبـــج
وقابلنا فيـــه نسيم البنفســـج
ولاح لنا ورد كخدّ مضـــرّج[21]

ولعلّ إكثاره من ذكر أسماء الأماكن، يفجر عنده الأحاسيس والانفعالات التي تثيرها في أعماقه تلك الصور والذكريات. وهنا نشير إلى أن ظاهرة الحنين عنده قد ملكـت

جميع حواسه ومشاعره حتى أصبح حنينه إلى قرطبة أقرب إلى الغزل والهيام، لأننا نراه كثيرا ما يتغزل بها ومحاسنها وجمالها، ونسمعه يناجيها في نبرة يلفها الألم ويتصارع فيها اليأس والأمل.

وإذا جسد كل من ابن خفاجة وابن زيدون حنينهما إلى الوطن من خلال الطبيعة الفاتنة، فإن "حازم القرطاجني" قد تطرق إلى الموضوع نفسه، لكنه خالفهما في الأسلوب. إذ كان أسلوبه يهدف إلى غرض الدعوة إلى العودة إلى الوطن واسترجاعه من محتليه:

جنّة الحسن من شرقي أندلس قد خيمت بين أزهار وأنهار

معاهد قد لبسن الأنس متصلا في غرّ أندية منها وأسحار

فأوحشت بعد إيناس وصار بها صرف الحوادث طلابا بأوتار[22]

ولأبي المطرف بن عميرة في الحنين باع طويل، سار فيه على نهج من سبقه من الشعراء العرب، ولو لا بعض الإشارات التي تتصل بمدينة بلنسية وبيئتها لما اختلف مضمون بعض قصائده عن مضمون أي شاعر جاهلي في غرض الحنين.

ونحس بشوقه إلى بعض الأماكن حيث يشاركه البرق المار بتلك الربوع، ويحمل معه لوعة إذ يقول:

أقول لساري البرق في جنح ليلة كلانا بها قد بات يبكي ويسهر

تعرض مجتازا فكان مذكّرا بعهد اللّوى والشيء بالشيء يذكر[23]

ويستبد بالشاعر الحنين، فيسأل ساري البرق عن وطنه:

هل النهر عقد للجزيرة مثلما عهدنا، وهل حصباؤه وهي جوهر؟

وتلك المغاني هل عليها طلاوة بما راق منها أو بما رقّ تسحر؟[24]

وبعد ما تأكد للشاعر أن وطنه صار بيد الأعداء، وأنه لا مجال للعودة إليه، راح يدعو على وطنه بالخراب والجدب، وهذا طابع غريب تميز به شعر الحنين لدى الشاعر:

ألا لا سقى غرّ الغوادي منازلا طعمنا جناها وارتعينا جنابـــها
ومالي استسقي الغمام لتربة أغضت لحيّات الصليب لصابها
وشردت التوحيد تشريد ساخر به وعلى التثليث أرخت حجابها
وددنا وأبصرنا لها الشرك عامرا لو أنا رأينا قبل ذاك خرابها[25]

وتمادى الشاعر في هجائه وعصبيته، لأنه فقد الأمل في الرجوع فتفجر حنينه غضبا على الدار وصاحبها.

وكذلك كان شعر الحنين لدى الأندلسيين الذين تعرضوا لظروف الغربة، فأحسوا بهذا الإحساس، وذكروا شوقهم إلى معاهدهم ومدنهم، نذكر منهم الشاعر محمد بن غالب الرصافي، من رصافة بلنسية، الذي كان شاعر وقته المعترف له بالإجادة[26]، وقد عاش بعيدا عن وطنه حتى وافته المنية بمالقة عام 572هـ[27]، وقد تمثل الشاعر وطنه في نفسه تمثلا كاملا، وحن إليه حنينا فياضا بالحب الصادق، ومن ذلك قوله:

خليليّ ما للبيد قد عبقت نشـــرا وما لرؤوس الركب قد رنحت سكرا
هل المسك مفتوقا بمدرجة الصبا أم القوم أجروا من بلنسية ذكـــرا
خليليّ عوجا بي عليها فإنّـــه حديث كبرد الماء في الكبد الحـرّى
قفا غير مأمورين ولتصديا بهـا على ثقة للغيث فاستقيا القطـــرا
بلادي التي ريشت قويديمتي بها فريخا وأوتني قرارها وكـــرا
مبادئ لين العيش في ريق الصبـا أبى الله أن أنسى لها أبدا ذكـرا
أكل مكان راح في الأرض مسقطا لرأس الفتى يهواه ما عاش مضطرا[28]

الدعاء بالسقيا للديار:

وإذا تتبعنا الخطوط العريضة للتقليد في شعر الحنين الأندلسي، فإننا نجد أنهم أوردوا بعض العادات القديمة بكثرة، ويبدو أنهم في سوقهم وتكرارهم لهذه العادات مساقون وراء عاطفة حب الانتماء إلى الأمة العربية وتأكيد الولاء لها، وبخاصة بعد أن أحدقت بهم المخاطر من كل جهة، ومن ثم لم يكن مفر من الرجوع إلى البعد الحقيقي

للأمة الأندلسية والتربة الراسخة التي تضرب فيها جذور هويتها، إذا فالأمر ليس تقليدا بقدر ما هو إثبات للذات، وتحقيق للكيان، والعودة بالروح إلى أعذب ينابيعها وصفاء أصالتها.

ومن هذه العادات العربية القديمة التي استخدمها الأندلسيون في شعر الحنين:

إذا كانت ظاهرة الدعاء بالسقيا للوطن أو لديار الحبيبة قد شاعت في الشعر العربي القديم، فذلك يعود إلى ظروف البيئة والمناخ وطريقة الحياة في الصحراء، بيد أن تردد هذه الظاهرة في الشعر الأندلسي حيث كانت الأنهار والوديان والرخاء، فإن هذا يدفعنا للبحث عن تفسير آخر لها، تفسير يضرب في الذات الأندلسية ويعبر عن سياق تاريخي معين، فالنموذج الأول الذي وظف فيه الدعاء بالسقيا للوطن، قول الشاعر أحمد بن عباس شاعر المعتصم بن صمادح أمير المرية:

ومما شجاني في الغصون حمائم تجاوب في جنح الظلام حمائما

يرجعن ألحانا لهن شواجنا فيرسلن أسراب الدموع سواجما

سقى الله أيكا ما يزال حمامه يهيج مشتاقا ويسعد هائما.[29]

ويحكى أن الشيخ أبا بكر بن سعادة أنه دخل مدينة طليطلة مع أخيه علي الشيخ الأستاذ أبي بكر المخزومي، قال: فسألنا:من أين؟ فقلنا من قرطبة، فقال: متى عهد كما بها؟ فقلنا: الآن وصلنا منها، فقال: اقربا إليّ أشم نسيم قرطبة، فقربنا منه، فشمّ رأسي وقبله، وقال لي: أكتب:

أقرطبة الغرّاء هل لي أوبة إليك؟ وهل يدنو لنا ذلك العهد

سقى الجانب الغربي منك غمامة وقعقع في ساحات دوحاتك الرعد

لياليك أسحار وأرضك روضة وتربك في استنشاقها عنبر ورد[30]

وهكذا نرى شعراء الأندلس حينما وضعوا الشعر الجاهلي نصب أعينهم، وظنوا أن محاكاته فضيلة، أدخلوا في الشكل القديم دون وعي منهم نماذج جديدة في الرؤية والشعر، مستجيبين في الوقت نفسه لما تمليه عليهم قلوبهم وعقولهم، فتعانق الشعر

المشرقي مع الأندلسي، من خلال ذلك الحنين الفياض، والشوق الملتهب للمدينة الأندلسية ذات الرياض والزهور، ورغم ذلك فالشاعر الأندلسي ملتزم بالتراث العربي القديم، مما يؤكد شدة حبهم لمدنهم، لأن العرب يرمزون بالمطر إلى شيء نفيس لما يحدثه من آثار في حياتهم، ورغم أن الأندلسي في حل من استخدام هذا الرمز لأن بيئته جرت فيها الأنهار المتدفقة، مما يغني عن ترقب المطر، ولكن تبقى دلالة الرمز العربي فريدة من حيث إعزاز الوطن وهو المنحى الذي قصده الأندلسيون، وإبداعهم يتجلى من خلال توظيفه في إطار قديم أو جديد.

وتظل هذه العادة تضطرد وتشيع في شعر الحنين الأندلسي، لتكون دليلا على ما كان يحسه هؤلاء القوم من الروع والخوف في التغرب عن مدنهم ومهوى أفئدتهم، وعند ذلك التفتوا أكثر إلى توظيف الأماكن والأسماء العربية القديمة، وهي سمة لافتة للنظر، لأن تلك الأماكن ليس لها ارتباط مادي بالشاعر، أو نظير على أرض الواقع الأندلسي، وهنا نسأل: ما شأن الأندلسيين بهذه الظاهرة في القرون المتأخرة من التاريخ العربي في الأندلس، ابتداء بالقرن السادس الهجري وانتهاء بالقرن التاسع؟

إننا نجد في الشعر الأندلسي الذي يصف شعور الشوق والحنين أمثلة لا حصر لها، تتداول فيها الأسماء والأماكن العربية القديمة، مثل: نجد، الرباب، هند، وادي اليمامة، الأراك..الخ، ومن تلك الأمثلة نذكر قول الرصافي البلنسي:

سقى العهد من نجد معاهده بما ... يغار عليها الدمع أن تشرب القطرا

فياغيتة الجرعاء ما حال بيننا ... سوى الدهر شيء فارجعي نشتكي الدهرا

تقضت حياة العيش إلاّ حشاشة ... إذا سألت لقياك عللتها ذكرا[31]

ويقول ابن الزّقاق في قصيدة لا تخلو من الروح الجاهلية:

رمى أدمعي نصّ الركائب والوجد ... فأبدت هوى من لم يكن سقما يبدو

بعيني هاتيك الحمول عشية ... وقد علقت من دون آرامها الأسد

أدارهم الأولى لبست من البلى ... مطارف لا تبلى وإن بلي العهد

كأن لم تكوني للأحبة منـــــــزلا ولا عبثت فيك الرباب ولا هنـــد[32]

ولعلّ الأندلسيين في استخدامهم لهذه الأسماء والأماكن القديمة كانوا يحنون بالرجوع إلى ذلك الماضي الزاهر، ويحنون إليه، بعد أن افتقدوا في حاضـــرهم عناصـــر العـــزة والازدهار، حيث اختلطت عليهم السبل ولاحـــت في أفقهـــم علامـــات الضـــعف والتفكك، فراحوا يلتمسون العزاء في استدعاء الرموز المكانية القديمة، فيقول ابن الجنان المرسي:

خليلي من وادي اليمامة خبّـــرا هل البان أرجاءه يتـــــأوّد
وهل سرحة القاع المريع جنابه تصيخ إذ غنى الحمام المغـــرد
فيا راكب الوجناء هل أنت مبلغ ديار سليمى ما أقول وأنشـــد[33]

وظل الوجدان الأندلسي يطلق مثل هذه الشحنات العاطفية القوية على مر العصـــور، ولم تخمد جذوة الشعر، ولم تضعف شاعرية هذا القطر حتى تهاوت آخر القلاع العربية فيه.

ونرى أن هذا الموضوع رغم فقده للرابطة المادية بينه وبين الشاعر، فإنّه يعكس رابطة نفسية قوية تشد الأندلسيين إليه، حيث كانت تلك الأسماء والأماكن- ومازالت - رموزا يلفها جو أسطوري ودلالات نفسية كامنة في أعماق العرب، وهذا يدل علـــى أن التجديد في الأدب الأندلسي لم يكن قد تجاهل التراث الفكري للأمة، بل انطلق منه بهدف البدء بالتجديد من ابعد نقطة وصل إليها التراث، والذي هو أصلا مجال التجديد ومادته، والأندلسيون اكثر الناس وفاء للروابط التأريخية التي تربطهم بالمشرق، منبـــع الحضارات ومهبط الديانات، ومكان الجذور، وهم بهذا الوفاء جعلوا أدبهم يمثل جانبا هاما من جوانب الأدب العربي.[34]

أما الجديد الذي أضافه الأندلسيون إلى شعر الشـــوق والحـــنين إلى الـــديار والأهل، فيمكن أن نلاحظه فيما أشرنا سابقا من أن هذا الموضوع مبثوث في معظـــم

الموضوعات الشعرية -تقريبا- إلى جانب كونه قد أصبح بابا من أبواب الشعر الأندلسي المستقلة.

هذا بالإضافة إلى ما يحمله من قيم إنسانية كبيرة، تتجلى في صورة ارتباط الإنسان بالمكان، وقد تميز الأندلسيون في معالجتهم لهذا الموضوع بعواطفهم الصادقة، حتى جنح بهم الخيال فأتوا بما يشبه الإعجاز، وليس ثمة عاطفة أصدق عند هؤلاء الشعراء، من قول عبد الله بن أبي روح الجزيري حين جعل عاطفة الوطن في منزلة عاطفة الأمومة فقال:

أحن إلى الخضراء في كل موطن حنين مشوق للعناق والضّم

وما ذاك إلاّ أن جسمي رضيعها ولا بد من شوق الرضيع إلى الأم[35]

ولقد اقتضى تصوير هذه العاطفة النبيلة نوعا من التجديد الفني، يتمثل في تناول الشاعر كل ما يحيط به في غربته، وإبراز العلاقات الخفية بينه وبين الأشياء بشكل يدعو إلى الإعجاب، وما يزال الإلحاح على جوانب الصورة حتى تكتمل نفسيا وتتضح فنيا.

وأخيرا يمكننا القول: إن الانتماء إلى المشرق جاء عن حب وعن انتماء لمكان ارتبطت به الروح والمشاعر قبل ارتباطها بالحضارة، أما الانتماء الأندلسي فجاء عن حب وعشق لمكان عاش فيه الأديب، والعلاقة بين الانتماءين لم تنفصل فإذا افتخر الأندلسي ببلاده فهو يفخر بعروبته وإسلامه، وسيظل " الموروث الفني والإبداعي جزء من حضارة الأمة... وشعر القدامى نهر هائل يروي الحياة كلها."[36]

وستظل جدلية القديم والجديد قائمة إلى نهاية الحياة الدنيا، فهذا أبو العلاء المعري من شعراء القرن الخامس الهجري قال:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل[37]

الهوامش:

[1] – ملامح الأصالة في الشعر الأندلسي، جلال الصابر عوض حجازي، دكتوراه دولة، مخطوطة جامعة الأزهر، 1974م، ص.4.

[2] –تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1981م، ص.338.

[3] – المرجع نفسه، ص.66. ولمعرفة المزيد عن الشراح الأندلسيين وشروحاتهم، يراجع: المرجع نفسه، ص 69-230.

[4] – تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، الداية، المرجع السابق، ص.268.

[5] –منتخبات الأدب العربي، حنا الفاخوري، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط5، 1970، ص.44.

[6] – الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي والأدب الأندلسي، محمد سعيد الدغلي، ط1، 1984، ص.67.

[7] – البيان المغرب، جـ2، ص.60. نقلا عن التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص.95.

[8] – المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، المكتبة التجارية، القاهرة، 1949، ص.17.

[9] – إن كثيرا من شعر الحنين، ارتبط بمقدمات القصائد؛ في المدح والغزل والرثاء.

[10] – يقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر، وأرخت عزاليها: كثر نعيمها، إشارة إلى كثرة المطر.

[11] – الحلة السيراء، ابن الأبار، تحقيق: حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ج1، ص119.

[12]– أبو بكر محمد بن القاسم، من أهل وادي الحجارة، يعرف باشكنهادة وترجم له صاحب المغرب في الجزء الثاني، 3

[13]– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د/إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، مج2، ص95.

[14]– ديوان ابن خفاجة، تحقيق: د.سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، (د.ت)، ص136.

[15]- المصدر نفسه، ص365.

[16]– ديوان ابن خفاجة، المصدر السابق، ص112-113.

[17]– المصدر السابق، ص128.

[18]– المصدر السابق، ص345.

[19]–ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، دار بيروت، للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص21-22.

* – ومنه: متى

** – هوى جاءت فتى (وأراها الأنسب)

[20]– المصدر نفسه، ص18.

[21]– ديوان ابن زيدون، المصدر السابق، ص30-31.

[22]– ديوان حازم القرطاجني، تحقيق: عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، 1989، ص46.

[23]–نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج4، ص494.

[24]– المصدر نفسه.

[25] - الروض المعاطر في خبر الأقطار، الحميري محمد بن عبد المنعم، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975، ص350-351.

[26] - ديوان الرصافي، جمعه وقدم له: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1989، ص15.

[27] - المصدر نفسه، ص15.

[28] - المصدر نفسه، ص68-69.

[29] - الذخيرة، لابن بسام، ق1، م2، ص198.

[30] - نفح الطيب، للمقري، ج1، ص155.

[31] - ديوان الرصافي، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، 1960، ص22.

[32] - ديوان ابن الزقاق، تحقيق: عفيفة ديراني، دار الثقافة، بيروت، 1964، ص141.

[33] - خريدة القصر وجريدة أهل العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، دار النهضة، مصر" د.ت"، القسم الرابع، ج2، ص153.

[34] - ينظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، هنري بيريس، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط1، 1988، ص57.

[35] - المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957، ص50.

[36] - الاغتراب في الشعر العراقي، محمد راضي جعفر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، دمشق، سورية، ص88.

[37] - منتخبات الأدب العربي، حنا الفاخوري، ص357.